سينما

«أغنية بقرة بيضاء»

سينما البساطة والعمق

فيلمٌ إيرانيّ جديد يتناول موضوع الإعدام ونتائجه في الحياة اليومية والعلاقات، ويناقش سينمائياً تأثيراته بعد بروز حقائق تناقض أحكامه

نديم جرجوره

امرأة تهرول إلى سجنٍ كبير. تطلب من الحارس أنْ يفتح الباب لها. يرفض، لأنّ الوقت غير مخصّص للزيارات. تُخبره بأنّ زوجها سيُعدَم، لذا فهي تريد وداعه. يسمح لها الحارس، ويرافقها إلى الزنزانة الأخيرة لرجل يظهر، عندما يُفتح الباب لثوانٍ قليلة، جالساً بتعب وارتباك. يُغلَق الباب. يُسمَع، حينها، بكاءٌ، يعكس شيئاً من هلعٍ وخوف. ثم لا شيء.

بداية قاسية، لكنّها غير معنيّة بإثارة انفعال أو موقف. سلاسة تصويرها تهدف إلى التقاط وقائعها من دون إضافات أو تفسيرات أو تبريرات. بداية تقول إنّ زوجة تودّع زوجها مرّة أخيرة قبل إعدامه. لا يُطلَب شيءٌ آخر في بداية كهذه. فَهمُ الحكاية يأتي لاحقاً. الأسئلة معلّقة إلى حين: لماذا يُحكم على الرجل بالإعدام؟ ماذا عن التهمة؟ أهذه الزوجة وحيدةً، أمْ أنّ لها منه أولاداً؟ ألديها أشقاء وشقيقات وأقارب؟ من هو الرجل المحكوم عليه بالإعدام؟ ماذا يفعل في حياته قبل إدخاله سجناً، والحكم عليه بالإعدام؟ أهناك دافعٌ سياسي، في لحظةٍ شاهدةٍ على غرق إيران في مزيدٍ من أحكام إعدام متنوّعة الأسباب؟

تتكاثر الأسئلة. لن يطول الوقت، فالمسائل تتوضّح تدريجياً. قبل تلك البداية، هناك آية قرآنية مستلّة من سورة البقرة: «وإذْ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أنْ تذبحوا بقرة قالوا أتتّخذنا هُزُواً». مباشرةً، هناك لقطة واسعة لساحة كبيرة، تتوسّطها بقرة، ويقف رجالٌ في ناحيةٍ ونساءٌ في الناحية المواجهة لهم. رموز أو إسقاطات أو تحريضٌ على متابعة وتورّط؟ المتابعة والتورّط يحدثان مع هرولة المرأة إلى السجن، ومع الانتقال إلى يومياتها الموزّعة بين ابنةٍ مُصابة بخرس وصمم، وعملٍ في مصنع لصُنع حليبٍ البقر. مُقيمة مع ابنتها في شقّة متواضعة، وجارتها (زوجة صاحب الشقّة) تهتمّ بهما أحياناً. شقيق زوجها يريدها، و«يُخبرها» بأنّ والده يسعى إلى الحصول على حضانة حفيدته. مسائل معتادة في اجتماعٍ يحاصر المرأة إنْ تكن وحيدة، ويجهد إلى خنقها بشتّى الوسائل إنْ تأبى الرضوخ لقوانينه.

تتحكّم السلاسة البصرية في سرد التفاصيل. الكاميرا تُكمِل كلاماً، والتوليف يُزيل الشوائب لإتمام مشهدٍ ومسارٍ وسياقٍ ووقائع. سيتغيّر كلّ شيء مع ظهور رجلٍ، ذي ملامح حزينة إلى حدّ الاكتئاب، في حياتها. يُخبرها بأنّه صديق قديم لزوجها، وأنّه يريد إعادة مبلغ من المال إليها، فهذا دينٌ، وعليه واجب إعادته. هي غير عارفة بهذا كلّه. هو يريد مساعدتها، فيتردّد إلى منزلها، ما يدفع جارتها إلى إبلاغها بضرورة ترك الشقّة (تنقل عن زوجها استياءه من تردّد رجل على منزل امرأة أرملة ووحيدة، رغم وجود ابنتها)، فيُساعدها الرجل الغامض في العثور على شقّة أخرى، ويهتمّ بها وبابنتها. لاحقاً، يتبيّن أنّ للرجل ابناً شابّاً سيلبّي الخدمة العسكرية، رغم تعلّقه بالموسيقى، وانفضاضه عن والده بسبب مواقف متناقضة بينهما، في السياسة والاجتماع والحياة.

> سلاسة سرد وكاميرا تُكمِل كلاماً وتوليف يُزيل شوائب

الرجل الغامض؟ إنّه القاضي الذي ينطق بحكم الإعدام بحقّ زوج المرأة، وهذا أول حكم ينطق به في مساره المهنيّ. الملامح الحزينة حدّ الاكتئاب؟ المحكوم عليه بالإعدام بريء، فمرتكب الجريمة يعترف بجرمه متأخّراً. أحد كبار المسؤولين في النظام الإيرانيّ يُخبر المرأة وشقيق زوجها الراحل بذلك، قبل ظهور الرجل الغامض في حياتها.

مساران اثنان يرتكز عليهما نصّ «أغنية بقرة بيضاء» (إنتاج مشترك بين إيران وفرنسا، 2020، 105 دقائق)، لبحتاش صنايعي ومريم مقدّم، التي تؤدّي فيه دوراً أساسياً أيضاً. الأول مسار مينا (مقدّم) بعد إعدام زوجها. الثاني مسار رضا أميني (عليرضا ثاني فرّ) بعد ظهور حقيقة الفعل الجرمي. الأول يكشف قسوة الاجتماع في علاقته بامرأة أرملة، تُقيم وحدها مع ابنةٍ وحيدة، غير قادرة على التواصل مع العالم حولها من دون لغة الإشارات، التي تُتقنها مينا جيداً. الثاني يتابع الانزلاق التدريجي إلى هاوية القهر والتمزّق والقلق والمتاهة والضياع، الذي يعيشه رضا بعد ظهور المجرم الحقيقيّ. تأنيب الذات، وتعذيبها وجَلدها أحياناً كثيرة، مسائل تنعكس سلباً على علاقته بابنه الوحيد، الذي تقتله جرعة زائدة من المخدّرات، ما يُزيد من وحشية الانزلاق إلى الهاوية نفسها. مينا تجهد في عيشٍ متواضع وبسيطٍ، و«تقبل» حكماً قضائياً يعتبره ناطقون به محمياً بكلام الله ورغباته (نقاش بين كبير المسؤولين ورضا، بعد استقالة الأخير وانكشاف مساعدته لمينا وابنتها، يعكس شيئاً من تساؤلات حول مدى جدّية الاقتناع بأنّ هذا، فعلياً، متأتٍ من كلام الله ورغباته). لكنّ انكشاف الحقيقة أمامها يُعقّد الأمور، وركونها إلى رضا محاولة لتجنّب الوحدة والعزلة والخوف والمصاعب. رضا يريد اغتسالاً وتطهّراً من خطأ يعتبره، ضمنياً، خطيئة؛ ومينا تتحضّن بعالمها الصغير مع ابنتها ومن أجلها، وخوفاً من عالمٍ أوسع يُكشّر عن أنيابه لحظة تلو أخرى.

مريم مقدّم في دور مينا: ثأر ملتبس أو مصالحة معطوبة؟ (امين جعفري، البرليناله 71)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

ليس كلّ استمرارٍ يعني حياةً أصلاً

اختفاء أنواع سينمائية من اهتمامات إنتاجية وتوزيعية وإخراجية وتمثيلية وفنية مختلفة، عربياً ودولياً، حاصلٌ منذ أعوامٍ مديدة. أفلام «وسترن» و«ميوزيكال» ورومانسية، مثلاً، غير مُثيرة لأحد. أفلام الـ«كاراتيه» والفنون القتالية أيضاً. البوليسيّ شبه غائبٍ في السينما العربية، رغم أنّ غالبية دولها تتفنّن في ابتكار أشكال كثيرة من الحكم البوليسي، وتبرع في تنفيذها دائماً.

سؤال غيابها مشروع. غيابها نفسه طبيعي. يحدث هذا مراراً في المسار التاريخي للسينما. أسبابُ عدّة تؤدّي إليه، وإنْ يكن «المزاج الجماهيري» أبرزها (هذا يستحقّ نقاشاً أيضاً)، فسطوة أنماطٍ أخرى تؤدّي أيضاً إلى الاختفاء. «مارفل» تستمرّ بسيطرتها على السوق، و«الأبطال الخارقون» يدعمونها، رغم مطبّات وتراجع وأخطاء وتسرّع. لا «مارفل» عربياً، و«الأبطال الخارقون» يعجزون عن اختراق حدود عربية جمّة. منصّات غربيّة تتفوّق على شركات إنتاج كبيرة، لكنّ منصّات العالم العربيّة أعجز من أنْ تُنافِس نفسها، رغم استثناءات نادرة.

الوجع العربي قاتل. منبثقٌ هو من سطوة أنظمة، وتخاذل أناس، وغياب فعل نقابي أو حزبي متحرّر من طائفة أو مصلحة ضيّقة. البؤس أكثر حدّة من أي وقتٍ ماض، لكنّ أفراداً كثيرين يُسبّبون حدّته واستمراريته، بصمتهم وخنوعهم وسخريتهم ممن يواجه ويتحدّى ويصرخ. التمزّقات تحول دون ابتسامةٍ. الشقاء يمنع إعلاناً شفّافاً عن حبّ، أو عن عيشٍ عاديّ (على الأقل) لرومانسية عادية (على الأقلّ). أزمات تقضي على أحلام، أو على المتبقّي منها. اختناق يمنع هواءً نظيفاً من تغيير لحظة أو راهنٍ أو عيش. السينما منبثقة من وقائع وحالات وانفعالات، وإنْ تذهب بعيداً في خيالها العلمي (ليس كلّ خيال علمي جذّاباً وبديعاً)، وفي مغامرات أبطالها الخارقين (غالبيتهم الساحقة ساذجة وصانعة انتصاراتٍ وهمية)، وفي ابتكار صُورٍ يصعب تصديقها لحظة مُشاهدتها، لتوغّلها في اللامعقول، أو في غير الممكن.

> العالم مرتبك والكتابة مُتعَبة ومُتعِبة في زمن غدّار

تغيب أنماطٌ سينمائية، لأنّ أنماطَ عيش وسلوك وتفكير تغيب أصلاً. أو لأنّ كلّ إمكانية بصرية لإنتاج ما يُلغي غيابها، تغيب. العالم غير متّسع لحبّ أو لرومانسية أو لبطولة راعي بقر، لا لبطولة من يملك/ تملك قدرات غير طبيعية، وإنْ يوظّفها/ توظّفها في أمور الحياة والدنيا. حتّى أبطال الفنون القتالية والـ«كاراتيه» غائبون نهائياً، وغيابهم غير محصورٍ بفنّ السينما فقط، ربما. العالم يحتاج اليوم إلى أبطالٍ خارقين فقط، لشدّة عجزه عن نيل حقوقه وحاجاته مع أبطال حقيقيين.

يُقال عادةً إنّ كلّ شيء فانٍ. أو ربما هذا عيشٌ ينتهي بفناء، وإنْ تستمرّ البشرية في إنجاب مزيدٍ من الناس، أي مزيدٍ من المصائب والأعطاب، مقابل ندرةٍ في البهاء والسلوى والمتع. البشرية تستمرّ، مع أنّ ليس كلّ استمرارٍ يعني حياةً، أصلاً. كلّ جميلٍ ينتهي، وكلّ بشاعةٍ أيضاً، وإنْ يكن للبشاعة عمرٌ أطول، عادةً.

أنواعٌ سينمائية تختفي. أنواعٌ أخرى تظهر، فتسيطر. العالم مرتبك. الكتابة مُتعَبة، ومُتعِبة في زمن غدّار كهذا. لكنّ بعض ذكريات جميلة أقدر على بقاءٍ يحميّ، وعلى شغفٍ يُحصّن من موتٍ سريع.

أم أنّ هذا كلّه وهمٌ؟

نديم...

كلينت إيستوود: الحاجة إلى بطلٍ حقيقي لا خارق (Getty)

أقوالهم

نعيش في عصر يسوده تدفّق مستمرّ وقاسٍ للمعلومات. في وجود كلّ قنوات البثّ التدفّقي ووسائل التواصل الجديدة والمواقع الإلكترونية وشبكات التواصل الاجتماعي، يبدو الأمر كأننا نعيش مع سمّاعة رأس، تنقل باستمرار أخباراً سلبية، تكون غالباً كاذبة ومتحيّزة. أنا أكره هذا كلّه.

جيرار دوبارديو

رغم الشهرة التي يحقّقها ممثل عربي، لا يهتمّ صانعو أفلام غربية بأيّ تراكم فني له. يبدأ معهم من الصفر. لديّ أحلام كثيرة، أسعى إليها بجدية. أتمنّى تكرار تجربتي في السينما العالمية («الفرن» لرودريك ماكاي). لا أزال في أول المشوار. الآن، لا أقدر على الاختيار، فالمساحة محدودة، والأدوار المطلوبة ربما لن تكون أحلامي كلّها، لكنّي أعتبر نفسي محظوظاً.

أحمد مالك

أفعالهم

Moxie **لآمي بولِر** (الصورة) إخراجاً وتمثيلاً، مع هادلي روبنسون وسيدني بارك: في مدرسة ثانوية، يمارس الصبيان شتّى أنواع المضايقات على الصبايا، ويعتمدون تصنيفات بدنيّة في التواصل معهنّ، ما يدفعهنّ إلى الابتعاد قدر المستطاع عنهم. إحداهنّ، وتدعى موكسي، تُقرّر مواجهة الوضع، فتتصدّى لهم وتبدأ لوحدها أولاً رحلة إثبات الوجود.

Lovers Rock لستيف ماكوين، تمثيل **أمارا جاي سانت أوبين** (الصورة) ومايكل وارد وشانيكا اوكْووك: قصّة متخيّلة عن سهرة «بلوز» تُنظَّم ذات يومٍ من أيام عام 1980، بهدف تكريم نوعٍ موسيقي غنائيّ، وشبيبة ذات بشرة سوداء، تعثر على الحبّ في موسيقاها، في زمنٍ كانوا غير مُرحَّبٍ بهم في ملاهٍ ليلية، يُفترض بروّادها أنْ يمضوا الليلة بكاملها فيها.

أخبار

◆ في الأيام القليلة المقبلة، تبدأ العروض التجارية الدولية لـ«الفرن» (The Furnace)، جديد (2020) الأسترالي رودريك ماكاي، تمثيل ديفيد وينهام وجاي راين وإيريك تومبسون، بمشاركة الممثل المصري أحمد مالك. والفيلم معروضٌ أولاً في برنامج «آفاق»، في الدورة الـ77 (2 ـ 12 سبتمبر/ أيلول 2020) لـ«مهرجان فينيسيا السينمائي الدولي». بعد عرضه حينها، وصفته «فارايتي» بأنّه «تجربة ممتعة أخّاذة»، واعتبرته «غارديان» فيلمَ ويسترن «بقوّة الجلود القديمة وجودة الذهب». أما «سكرين دايلي»، فرأت أنّ أحمد مالك «خطف الأبصار» في دور حنيف. تبدأ أحداث الفيلم مع نهاية القرن الـ19، في أستراليا الغربية. راعي جمال أفغاني يسعى إلى التخلّص من أزمة وجودية قاسية، والعودة إلى وطنه. لكنّ ظروفاً عدّة تضطرّه إلى عقد شراكة مع حطّاب، هرب وبحوزته سبائك ذهبية، تزن 400 أوقية، مختومة بتاج الملكة. هذا يُحتّم على الثنائي المتنافر «تضليل رقيب شرطة متعصّب وجنوده، قبل وصولهما إلى فرنٍ سرّي مختصّ بصهر الذهب». والفرن هذا يُعتبر «المكان الوحيد الذي يتيح إزالة ختم تاج الملكة».

◆ أعلن مهرجان كانّ عن سعادته في التأكيد على أنّ الأميركي سبايك لي سيكون رئيس لجنة تحكيم الدورة الـ74، التي ستُقام بين 6 و17 يوليو/ تموز 2021: «وفياً لالتزاماته، وَعَدَ المخرج الأميركي بمرافقة المهرجان في عودته إلى الكروازيت»، بعد إلغاء دورة العام الماضي بسبب تفشّي وباء كورونا. وبحسب البيان الصادر عن إدارته، يفتتح المهرجان العقد الجديد من القرن الـ21 مع «رئيس استثنائي للجنة التحكيم، أحد أعظم مخرجي جيله، السيناريست والممثل والمؤلّف والمنتج (سبايك لي)». أضاف البيان: «منذ 30 عاماً، يُترجم سبايك لي، الرجل الذي لا يتعب، أسئلة عصره بدقّة، بشكلٍ معاصر وصارم، ومن دون إهماله أبداً الخفّة والمرح». وينقل البيان عن رئيس المهرجان، بيار لاسكور، قوله إنْ سبايك لي لم يتوقّف، في الأشهر الماضية، «عن تشجيعنا»، واصفاً إياه بأنّه «الشخص الأقوى للتساؤل عن اضطرابات عصرنا». أما المدير الفني تييري فريمو، فقال إنّ حماسة سبايك لي للسينما وشغفه بها «يمنحاننا طاقة متزايدة للتحضير للمهرجان الذي ينتظره الجميع».